ألف ليلة وليلة في ديوان الشعر الملحون

عبد العزيز **اعمار**
جامعة ابن طفيل– القنيطرة

ترتبط لحظة الحكي عند جدّاتنا في المغرب بزمن الليل، مثلهن مثل شهرزاد، ومن الشائع أن التي تحكي بالنهار قد يصاب أطفالها بالقرع. بيد أن طقوس الحكي عند رواتنا في الساحات، تكون في عز النهار. إنها مفارقة عجيبة تلف ممارستنا للحكي بين فضاء البيت وفضاء الحلقة، بين زمن الليل وزمن النهار.

١. هجرة محكي شهرزاد

نقارب في هذه الدراسة نصين حكائيين ينتميان إلى الثقافة والأدب الشفهيين، أحدهما نثري من كتاب ألف ليلة وليلة اتسعت مساحات انتشاره حتى بلغ مداه الكوني. والآخر شعري من ديوان الملحون، تتحدد جغرافيته داخل المجتمع المغربي.

لكل من هذين النصين سياقه التاريخي والثقافي، وكذا تميزه الخاص به. لكنهما يتقاطعان فيما يمكن أن نسميه بهجرة المحكي وامتداد المتخيل، حيث نطرح التساؤل: كيف تسافر النصوص الشفهية عبر الأشكال والثقافات والأزمنة والجغرافيات، فتكتسب خصوصية وتفردا محليين، من دون أن تفقد بعدها الإنساني وثوابتها الكونية الشمولية.

ومعلوم لدى المؤلفين والرواة والباحثين والنقاد، مدى انتشار كتاب ألف ليلة وليلة وشهرته، وكذا التأثير الذي أحدثه في مختلف أشكال الفنون والآداب في العالم، من رواية وقصة وشعر ودراما وسينما وموسيقى وتشكيل...

كما تعود أهمية كتاب الليالي إلى اعتباره نموذجا فريدا للحكايات، سواء في الثقافة العربية أم العالمية، ولا يضاهيه في ذلك إلا مصنف حكايات الأطفال والبيوت للأخوين جريم Grimm. وتشترك في حكايات شهرزاد وتتداخل عوالم الإنس والجان والحيوان. كما تضم لهجات متعددة. وبالإضافة إلى جمعه بين الشعر والحكم والأمثال، يحيل على أسماء الأعلام والمدن والعادات والتقاليد والأخلاق والمآسي والأفراح... إنه كون حكائي، يتقاطع بداخله عالم الألفة والغرابة في الوقت نفسه.

وقد أقدم المؤرخون العرب على ذكر ألف ليلة وليلة في مؤلفاتهم، ومنهم المسعودي (ق١٠م/ ق٤هـ) في كتابه مروج الذهب وابن النديم (ق١٠م/ ق٤هـ) في مؤلفه الفهرست، ثم المقريزي (ق١٥م/ ق٩هـ) في مصنفه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار وأخيرا المقري (ق١٧م/ ق١١هـ) في كتابه نفح الطيب. ولقد سكنت، كذلك، أنفاس الليالي ديوان الشعر الملحون المغربي، فحفلت العديد من قصائده بحكايات شهرزاد. ذلك أن ديوان الملحون شكّل، إلى جانب أصناف شعرية شفهية أخرى، مدونة المغاربة وسجل معيشهم وخبراتهم ومعارفهم، كما اعتبر أيضا ذخيرة غنائهم ونغمهم، فنظموه بلغة يومهم، وأثثوا صوره ورموزه في متخيلهم الجماعي، إنه حفريات ذاكرتهم بامتياز.

يبذل أشياخ الملحون جهدا مضنيا في التقاط الأخبار وتجميع المعلومات وتركيب الأفكار. إنهم شعراء يصاحبون ويجالسون وينصتون، هم أكياس حكمة ومعرفة، يصوغون تجربتهم بقوة الذاكرة ووقع الكلمة المنظومة/ المنطوقة. ومن هنا يضطلع هؤلاء الزجالون بمهمة الإخباريين الذين ينقلون المعرفة ويشيعونها بين الناس، إلى جانب إمتاعهم ومؤانستهم بنقلهم حكايات ومرويات تحفظها ذاكرتهم وتصوغها قصائد تنتشر وتتداول في الغناء والإنشاد (اعمار، ٢٠١٦، ص ٢٧-٣٩).

٢. نسيج الحكي: بين شهرزاد والشيخ المكي

في هذه الدراسة سنعمل على مقاربة نصين اثنين: الأول هو "حكاية الجواري المختلفة الألوان وما وقع بينهن من المحاورة" التي استغرقت روايتها خمس ليالي من مرويات شهرزاد (من الليلة ٣٧٣ إلى ٣٧٧) (ألف ليلة وليلة،١٩٨١، ص ٣٩٣-٤٠٣)، أما الثاني فهو قصيدة "أخصام الجوار" (واجو، د. ت، ص ٥٠-٥٤)، للشيخ المكي

بن الحاج القرشي المعروف بواجو (الفاسي، ١٩٩٢، ص ٧٣) من شعراء الملحون في القرن العشرين. عُرِف هذا الشاعر باحترافه مهنة الخياطة وإقامته بمدينة مراكش، حيث كان –كغيره من شعراء الملحون– يتردد إلى ساحتها الشهيرة، جامع الفنا التي صنفتها اليونسكو تراثا إنسانيا ينبغي صيانته والمحافظة عليه. كان الشيخ المكي واجو يجلس في هذه الساحة إلى رواة الحكايات والملاحم، أو ما يطلق عليه في المغرب بـ "الحلقة"، مما يفسر اطلاع هذا الشاعر الزجال على قصص القرآن وملاحم العرب وحكايات الليالي التي كانت رائجة في حلقات ساحة جامع الفنا وغيرها من ساحات الأسواق المغربية والتي أعاد الشيخ المكي واجو صياغتها نظما على معمارية قصيدة الملحون وبنائها. وبذلك اشتهر بنظمه المرويات، ومن قصائده:

- "اليوسفية" وتحكي قصة سيدنا يوسف وما جرى له مع إخوته.
- "الشدّادية" وتحكي سيرة عنترة بن شداد العبسي وعشقه ابنة عمه.
- "البغدادية" وتروي قصة ولد من مدينة بغداد، ولدت أمه منه بنتا وتزوجها (أوديب المغربية).
- "المرآة المصرية" التي كادت زوجها حتى انتهت بقتله.

وغير هذه المحكيات الشعرية كثير عند أشياخ الزجل المغاربة. كذلك تعرف هذه القصائد /المرويات/ المغناة في الشعر الملحون المغربي بالتراجم (مفردها ترجمة) أو المحاورات (مفردها محاورة) أو الخصام، تماما كما ورد في عنوان النصين –متن الدراسة، وهي قصائد ملحونية في موضوع قصة هزلية أو جادة، تحمل خصائص مسرحية من قصة ومشاهد وشخصيات وحوار... تعكس هذه المحاورات أو المنازلات الكلامية، التناقضات والصراعات والانشغالات الاجتماعية وتنتقدها بأسلوب ساخر أحيانا وجاد أحيانا أخرى، في محاولة لتقويم هذه الحالات والوضعيات وتصحيحها داخل المجتمع. ومنها قصائد: الحراز – القاضي – الفقيه – الخادم والحرة – العجوز والشابة[١].

تتقدم معمارية حكاية الجواري المختلفة الألوان وما وقع بينهن من المحاورة في خمس ليال، تؤثث كل ليلة مشهدا حكائيا معينا. ولقد جعلت شهرزاد من الليلة الأولى

١ انظر في هذا الصدد: اعمار، ٢٠١٦، ص ٣٢ والفاسي، ١٩٨٦، ص٣٨ والفاسي، ١٩٩١، ص ٣٩.

استهلالا ممهدا لموضوع حكايتها الرئيسي (المحاورة): مجلس الخليفة المأمون وطلبه إلى نديمه حسن البصري أن يحكي له أغرب ما رأى أو سمع؛ ثم مجلس التاجر اليمني المقيم في بغداد وطلبه إلى جواريه الست أن تمدح كل واحدة نفسها وتذم ضرتها (البيضاء/ السوداء- السمراء/الصفراء- السمينة/ الهزيلة) و"(...) يكون ذلك بدليل من القرآن الشريف وشئ من الأخبار والأشعار لننظر أدبكن وحسن ألفاظكن، فقلن سمعا وطاعة" (ألف ليلة وليلة، ١٩٨١، ص ٣٩٦).

في الليلة الثانية تعرض شهرزاد على لسان حسن البصري، المنازلة الكلامية التي جرت بين الجاريتين البيضاء والسوداء. ومما قالته البيضاء:

(...) أنا النور اللامع أنا البدر الطالع(...) وفي حسني قال الشاعر:

بيضاء مصقولة الخدين

كأنها لؤلؤة في الحسن مكنون

(...) فلوني مثل النهار الهني والزهر الجني والكوكب الدري، وقد قال الله في كتابه العزيز لنبيه موسى عليه السلام: وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء (...) يا سوداء يا لون المداد وهباب الحداد ووجه الغراب المفرق بين الأحباب... (ألف ليلة وليلة، ص ٣٩٦).

وقد ردت السوداء:

(...) أما علمت أنه ورد في القرآن المنزل على نبي الله المرسل قوله تعالى: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، ولولا أن الليل أجل لما أقسم الله به وقدمه على النهار (...) أما علمت أن السواد زينة الشباب فإذا نزل المشيب ذهبت اللذات ودنت أوقات الممات (...) وما أحسن قول الشاعر:

فكأن لوني في الدياجي غيهب

لولاه ما قمر أتى بضياء

(...) وأما أنت يا بيضاء فلونك لون البرص ووصالك من الغصص (...) ولولا سواد المسك والعنبر ما كان الطيب يحمل للملوك (...) وما أحسن قول الشاعر

ألم تر أن المسك يعظم قدره

وأن بياض الجير حمل بدرهم (ألف ليلة وليلة، ص ٣٩٨)

وفي الليلة الثالثة حكت شهرزاد ما وقع من المحاورة بين الجاريتين السمينة والهزيلة، ثم جعلت من الليلة الرابعة مسرحا للخصام الذي جرى بين السمراء وضرتها الصفراء.

ولا تلبث شهرزاد في الليلة الخامسة أن تجمع تلابيب حكايتها من خلال مشهد في ثلاثة مقاطع، حيث التاجر اليمني يصالح بين جواريه والخليفة المأمون يضمهن إلى مجلسه ثم يسترجعهن سيدهن بعد اشتياقه إليهن.

ويحافظ الشيخ المكي في قصيدته "أخصام الجوار" على موضوع حكاية شهرزاد الرئيسي، لكنه يسقط المشهد التمهيدي لليلة الأولى والمقطعين الأخيرين من مشهد الليلة الخامسة. كما يعرض قصيدته بمعمارية شعرية على شاكلة القصيدة الملحونة المغربية، بناء وتركيبا ولغة وإيقاعا.

تتقدم قصيدة "أخصام الجوار" بمطلع يسمى في الشعر الملحون "الدخول" يثير فيه الشيخ المكي انتباه السامعين/ الحضور إلى موضوع حكايته:

اسمعوا قصة تاجر كان دُنيوي واهْوَوِي عشق الزين ابْلِيَا
متولع بالحسن والبها وشَري ست اجوار

(...)

افداك اليوم انطق سيدهم قال ليهم اتخاصمو بالشرط اعْلِيا
كل اغزال تهجي ضدها قالو ليه اخيار (الشيخ المكي)

ثم لازمة تسمى "الحربة" تلخص موضوع الحكاية وتذكر به المستمعين عند نهاية كل قسم:

اسمعوا اخصام الباهيات البيضا والكحلا اتعايرو
والسفريا والصفرا اغليضا مع الرقيقا (الشيخ المكي)

وتتشكل القصيدة من سبعة أقسام. خصص الشيخ المكي ستة منها لمشاهد الخصام الذي جرى بين الجواري الست، إذ أفرد لكل جارية قسما تعرض فيه بلاغتها وقدرتها على القول في مدح نفسها وذم ضرتها. كما أفرد الناظم القسم السابع والأخير[٢] لمشهد النهاية عندما يصلح التاجر بين جواريه، ويطلب الشيخ المكي إلى راويته نشر

٢ ويسمى القسم الأخير من القصيدة في الشعر الملحون "السياج/ التسييجة" أي القسم الذي يحمي القصيدة ويحفظها من السرقة والضياع، تماما كما يحمي السياج الحقل أو المزرعة.

القصيدة بين الناس، فيعلن عن اسمه ويصرح بمصدر حكايته «كتاب الليالي»، حكاية صاغها نظما بشطارة عالية وخياطة متقنة.

و"الخياطة" مصطلح نقدي عند أشياخ الملحون، تعني أن يأخذ الشاعر معاني غيره ويصوغها/ ينظمها بأسلوبه، كما فعل الشيخ المكي مع حكاية شهرزاد. فـ "الخياطة"مهارة يعترف الأشياخ بشعريتها عند قولهم "اخياطة مزيانا احسن من سجية امدبرا" (الجراري، ١٩٧٨، ص ٢٧) أي خياطة متقنة أفضل من سجية غير ناضجة. والمعروف كذلك عن الشيخ المكي أنه يتقن هذا الضرب من النظم. ولا غرابة في ذلك، لأنه كان يمتهن حرفة الخياطة. وجاء في نهاية القسم الأخير:

انتهت الحُلاًّ يا افهيم قال المكي يا سامعين قصا مرويا
منقولا من الكتاب والخياطا اشغل الشطار (الشيخ المكي)

وما نسجله من ملاحظات حول نص الشيخ المكي، أنه حافظ على الثابت في حكاية شهرزاد (قصة خصام الجواري الست بطلب من سيدهن)، كما حافظ على الصور والمعاني نفسها التي أثثت مشاهد الحكاية في الليالي من أكل وشراب وطرب وشعر ولباس وزينة... كذلك قدم بطلات قصته —وهن يتحاورن– بالصفات والسمات المميزة نفسها الخاصة بكل واحدة منهن، مدحا وذما.

ونسجل أيضا أن الشيخ المكي التزم في نصه بلغته الشعرية الملحونية أثناء السرد، حين اعتمد استراتيجية التكثيف مقابل الإسهاب والتمطيط كخاصية سردية نثرية ميزت نص شهرزاد. ونرصد هذه الاستراتيجية على مستوى عتبة العنوان وهندسة مشاهد الحكي، ثم بناء الصورة وبناء المعنى. وقد انتقل الشيخ المكي على مستوى لغة الحكاية وبناء معجمها، من تداوله العربي المعياري في حكاية شهرزاد إلى تداوله المغربي الدارج في قصيدته الملحونية؛ وذلك من خلال مركبات معجمية وتمثيلات لغوية، صرفية وتركيبية ودلالية، لها تمثلاتها ومرجعياتها وحمولاتها الفكرية والعقدية والسوسيو–ثقافية، في المجتمع المغربي.

٣. صوت شهرزاد: مساحات مختفية

ونورد في ما يلي بعض تجليات محكي ليالي شهرزاد واستلهاماته التي سكنت أنفاسها بعض قصائد الشعر الملحون المغربي. ويتعلق الأمر بعناصر حكائية تؤثث فعل الحكي وتنحت مجرى انسيابه وتحقق نشوة لذته في كتاب ألف ليلة وليلة. وينعكس صدى هذه العناصر على جدار ذاكرة القصيدة عند أشياخ النظم المغاربة، حيث خطاب العجائبي واستراتيجية المغامرة وآلية التنكر وكذا فضاء القصر ومحفزات الوصال من (خلوة- أكل- شراب- شمع- طرب- كلام...)، كلها خيوط حكائية نسجتها مخلية شهرزاد، وأعادت غزلها ذاكرة القصيدة. وللوقوف على هذا البناء الحكائي، نقترح أربعة نماذج من قصائد لها الخطاطة السردية نفسها.

٣.١. **"الحراز" للشيخ البغدادي** (الفاسي، ١٩٩٠، ص ٨٣)

وتحكي قصة رجل فاحش الثراء، يحتجز امرأة حسناء (زوجته أو قريبته) في قصره المحاط بالحرس. يصونها ويمنع عنها كل زائر يحاول رؤيتها أو الاقتراب منها. ويقرر عاشقها الشاب ركوب المغامرة واقتحام القصر للاتصال بها. فيأتي متنكرا في صور مختلفة (عبد- تاجر- مجذوب- فقيه...) ويصده الحراز في كل مرة إلى أن يتوفق في مهمته. فيدخل القصر ويحقق رغبته في الوصال بمحبوبته في غفلة من الحراز وفي خلوة يحفها الأكل والشراب والشمع وكلام العشق والغزل. يقول الشيخ البغدادي في حربة/ لازمة "الحراز":

مال حراز اغزالي ما يثق بيا هيهات   غير حاضي الوقات   في ثيابو مسلم وافعايلو رومية

إلى أن يقول مخاطبا راويته في القسم الأخير من القصيدة:

خذ هاذ القصا تذكار   بين الجواد في كل الأقطار

٢.٣. "الجَدْوَل" للشيخ الصديق الصويري (الفاسي، ١٩٩٠، ص ٥٥)

في هذه القصيدة أيضا يرغب العاشق في لقاء محبوبته المقفل عليها في قصر البلار. فيركب المغامرة ويستعمل "الجدول"[٣] ليدخل القصر ويخترق أبوابه السبعة المحروسة بالأرصاد والجان. ينجح في مهمته وينعم بوصال محبوبته. يقول الشيخ الصويري:

(...) فقصر الحكمة (...) المسمي قصر البلار
فيه تفهى ساير الأبصار محصون بسبع أسوار كل سور

فيه باب (...) والحراس عليهم كل باب بعفريت اسقير ما يليه امْحَنَّة (...).

٣.٣. "الضيف" للشيخ الجيلالي امتيرد (امتيرد، ٢٠٠٨، ص ٢٣٣)

قصيدة تحكي قصة عاشقة حسناء، تغادر قصرها ليلا للقاء عاشقها، تطرق بابه متنكرة في صورة فارس ملثم يطلب "ضيف الله". يستضيفها العاشق ولم يكن يعرف من هو الفارس الملثم. يجري بينهما حوار يكتشف خلاله العاشق أنها محبوبته وقد جاءت لزيارته في غفلة من الرقباء، فيخاطب العاشق الفارس الملثم في لازمة "الضيف":

آضيف الله رد الجواب اصغالي لا تحشم رد السلام

وتزيح العاشقة لثامها لتكشف عن نفسها وتسر لعاشقها:

اخطف عقلي اهواك يا عز ارجالي واخرجت نهيل بالقدام
واخفيت على اعيون العدا عدالي لحضرتك شادا احزام
هات الصفرة وزيد غَدَّر فمصالي نزهاو ابطاست المدام

٣ تعني كلمة "جدول" في المتخيل الشعبي المغربي استحضار البخور والجن والطلاسم وكتب السحر وأثر الكواكب وأيام الأسبوع.

٤.٣. "الزطمة" للشيخ الجيلالي امتيرد (امتيرد، ٢٠٠٨، ص ٩٣)

"الزطمة" تعني في الدارجة المغربية وطأة قدم بقوة وثبات. والقصيدة تحكي قصة عاشق تدعوه محبوبته بواسطة وصيفتها إلى زيارتها في قصرها. وكان لها إخوة ثلاثة من أشر خلق الله. يركب العاشق المغامرة ويقسم أن تطأ قدماه قصر الحبيبة المغلق بسبعة أبواب تحرسها الجان. بالفعل ينجح العاشق في دخول القصر ويجد محبوبته بانتظاره مرحبة به. جاء عند الشيخ الجيلالي امتيرد:

هيجت أشواقي بالغرام وارْفَدْتْ الدركَا والحسام
واحلفت اقسمت برافع السما حتى نَزْطَم لو انصيب اغشامة
(...)
عايق فايق عين اوذن محزوم امكَرّوَد لو انظرني عفريت الجن ينزفر من قربي
(...)
واتسلح الركام وهب الريح العصيف ليلة تفتن وتشيب لمرضع

على سبيل التركيب:

إن البحث في هذه النصوص الشعرية الملحونية، قد أتاح لنا رصد المشترك بينها وبين ليالي شهرزاد على مستوى شروط تناسل الحكي وامتداده عبر اللغة والخيال في تجاوز تام لصيغة الحكي أشعرا كانت أم نثرا. ذلك أن مقاربة هذا المشترك يسمح بإبراز بعض قوانين تشكل الخطاب الحكائي، كما يعلي الثابت والمتكرر في بنية الخيال البشري بمختلف تجلياته، مهما اختلفت الثقافات وتباعدت الجغرافيات.

والحال أن الإنسان المغربي قد عرف على امتداد جغرافيته ومراحل تاريخه، ملتقى حضارات موغلة في القدم، أقبلت على أرضه خصوصا من الشرق والبحر المتوسط. سكن هذه الأنفاس وسكنته فلفظها رموزا وخيالات، بأسلوبه المميز وأشكاله التعبيرية الخاصة به. ومن هنا يمثل البحث في دور الأدب الشفهي احتفاء بإنسانية الإنسان في خصوصيته ومشتركه الكوني. مما حدا بمنظمة اليونيسكو على العناية بهذا الأدب، فصنفته تراثا ثقافيا إنسانيا غير مادي، تجب صيانته والمحافظة عليه. كما اعتبرت شعراءه ورواته كنوزا بشرية حية متنقلة، تجب رعايتهم ودعمهم وضمان امتدادهم بالتعلم والتتلمذ عليهم (سكونتي وآخرون، د.ت).

وعسى أن تمدنا الدراسات الأدبية الشفهية بنصوص حكائية مغربية أخرى، قد ترجع أصولها هي أيضا إلى ثقافات العهد القديم (اعمار، ٢٠١٧). مما يؤهل الأدب الشفهي بهجرة نصوصه وامتداد متخيله لأن يكون منبتا إنسانيا خصبا لتلاقي الثقافات وتساكنها.

المراجع

- اعمار، ع. ع. (٢٠١٧). خطاب الحكاية - هجرة المحكي وامتداد المتخيل، ضمن علي الرقيقي وحفيظة العمراني وحنان بندحمان (تنسيق)، تكامل المعرفة والعلوم الإنسانية - تكريم ليلى المسعودي، (ص ١٦٩– ١٨٠). كندا: منشورات سلسلة مونوغرافية للعلوم الإنسانية، جامعة لورينسيان أونتاريو.
- اعمار، ع. ع. (٢٠١٦). الشعر الشعبي المغربي الملحون - ذاكرة مغناة. (ص ٢٧–٣٩). ضمن

Boustani, S. & Rizk, K. & Chraim, J. (dir.), *Traditions poétiques et narratives Arabes - Littératures dialectale et populaire,* Actes du colloque international .2015- 2016, Kaslik-Liban : Presses de l'Université Saint-Esprit de Kaslik

- (١٩٨١). ألف ليلة وليلة. (المجلد الثاني). بيروت: مكتبة الثقافة.
- الجراري، ع. (١٩٧٨). معجم مصطلحات الملحون. المحمدية: مطبعة فضالة.
- سكونتي، أ. (د. ت)، ساحة جامع الفنا: تراث ثقافي غير مادي لمدينة مراكش والمغرب والإنسانية. الرباط: المكتب متعدد البلدان، اليونيسكو.
- الفاسي، م. (١٩٨٦). معلمة الملحون. (ج. ١، ق. ١). الرباط،: منشورات أكاديمية المملكة المغربية.
- الفاسي، م. (١٩٩٠). معلمة الملحون - روائع الملحون. (ج. ٣). الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.
- الفاسي، م. (١٩٩١). معلمة الملحون - معجم لغة الملحون. (ج. ٢، ق. ١). الرباط: منشورات اكاديمية المملكة المغربية.
- الفاسي، م. (١٩٩٢). معلمة الملحون - تراجم شعراء الملحون. (ج. ٢، ق. ٢). الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.
- امتيرد، ج. (٢٠٠٨). الديوان، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

- واجو، ش. م. (د. ت). قصيدة "اخصام الجوار"، مخطوط من كناش عبد الله الحسوني، أحد جامعي ومدوني قصائد الشعر الملحون بمدينة سلا – المغرب.